2

أذهان محمومة

في ربيع عام 2002، التقيت بكنعان مكية في إحدى جلساتنا غير المنتظمة لتناول القهوة، في مقهى يقع في ميدان هارفارد. وكنت آنذاك قد انتقلت من كامبريدج إلى نيويورك. حيث هرعت في صباح يوم 11 سبتمبر/ أيلول، 2001 في الجادة الخامسة، وقبالتي أرتال من الرجال والنساء يغطيهم الرماد، كانوا يتدفقون إلى المكان الذي كان يجثم فيه برجا مركز التجارة العالمي، وعبرت جسر بروكلن في خروج جماعي لعمال حمر الوجوه، بينما كان الدخان والغبار يصعدان نحو السماء.

وبعد ستة أشهر، وبعد حرب في أفغانستان، كان مكية يتحدث عن حرب أخرى، هذه المرة في العراق. كانت تلك هي الحرب التي دعا إليها دون جدوى في عام 1991، حرب للإطاحة بصدام حسين.

في يناير/ كانون الثاني 2001، في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي في ظل الإدارة الجديدة، قدّم المسؤولون إلى الرئيس المنتخب الجديد خططاً للتخلص من صدام وفقاً لقانون تحرير العراق عام 1998 الذي كان قانوناً رمزياً إلى حدّ كبير (على الرغم من أن هذا لن يظهر إلا بعد ثلاث سنوات، في رواية سردها بول أونيل (Paul O'Neill) أحد المطلعين على بواطن الأمور، وأول وزير للخزانة في حكومة بوش، ولم يبقَ في منصبه طويلاً). وفي شهر إبريل/نيسان، في أول اجتماع عقدته الإدارة حول الإرهاب، وجد ريتشارد كلارك، المسؤول البارز في مكافحة الإرهاب في ثلاث إدارات، أن المسؤولين الثلاثة الذين عيّنهم بوش، ولا سيما بول وولفوفيتز، نائب وزير الدفاع، كانوا مهتمين بالتهديد من دول مثل العراق، أكثر كثيراً من التهديد من عصابة الجهاديين العالمية الغامضة التي لا تنتمي لدولة معينة، المسماة القاعدة. وقد نقل كلارك لاحقاً عن وولفوفيتز قوله: «إنني لا أفهم بالضبط لماذا بدأنا نتحدث عن هذا الرجل بالذات ابن لادن. إنك تعطيه أكبر من حجمه.

فهو لا يمكنه فعل كل هذه الأشياء مثل الهجوم على نيويورك عام 1993، ليس دون رعاية من دولة». كان وولفوفيتز يعني العراق. لما كان مسؤولون مثله ممن قد حاربوا -وبرأيهم- ربحوا الحرب الباردة بسياساتهم المتشددة، فإنهم، وقد عادوا إلى السلطة، لا يزالون يرون عالم الأخطار من منطلق دول عدوة ذات صبغة عسكرية شديدة. لم تغير سنوات التسعينيات تفكيرهم. وكانت تلك السنوات في نظرهم سنوات ضائعة. في ظل إدارة كلنتون، كان التركيز قوياً للغاية على العولمة والمؤسسات الدولية والتهديدات غير الخطرة، التي لا حدود لها مثل الفقر والنزاع الإثني.

ثم جاء 11 سبتمبر/أيلول. ففي غضون دقائق من فراره من مكتبه في وزارة الدفاع المدمرة، أخبر وولفوفيتز معاونيه أنه يشك في تورط عراقي في الهجمات. وبعد وقت قصير من الساعة الثانية بعد الظهر، بينما كان الهواء في مانهاتن السفلى، وعلى طول نهر البوتوماك لا يزال يعج بالدخان اللاذع، دوّن مساعدون لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد ملاحظات في وقت كان رئيسهم يعقد اجتماعاً في المركز الوطني للقيادة العسكرية: أفضل المعلومات السريعة. قرّر: هل من المناسب ضرب صدام حسين في الوقت نفسه أيضاً، وليس فقط أسامة بن لادن. اضرب على نطاق واسع، سواء الأمور ذات الصلة، أو التي ليس لها صلة. في عصر ذلك اليوم ذاته، اتصل ديفيد فروم (David Frum) أحد كتبة خطابات بوش، الذي تم إجلاؤه من البيت الأبيض والتجأ إلى مكاتب معهد المشروعات الأمريكي، هاتفياً بريتشارد بيرل، أحد أشد أنصار تغيير نظام الحكم في العراق الموجودين في واشنطن. حث بيرل فروم من منزله الذي كان يقضي فيه إجازته، في جنوب فرنسة قائلاً: «مهما يقول الرئيس، عليه أن يوضح أنه يعدّ المسؤول عما حدث ليس الإرهابيين فحسب؛ وإنما كل من يؤوي هؤلاء الإرهابيين». وفي تلك الليلة، في خطاب متلفز ألقاه من البيت الأبيض، عمل بوش بنصيحة بيرل حرفياً ومن ثم أسهب قائلاً: «إن بقية العالم إما أن يكون مع أمريكة أو مع الإرهابيين. وفي اليوم الذي أعقب الهجمات، حسب ريتشارد كلارك، أمر بوش فريقه المختص بمكافحة الإرهاب معرفة: هل من الممكن وجود أي صلة للعراق؟». انظروا إن كان لصدام علاقة بما حدث، أو كانت له صلة بأي شكل من الأشكال».

ردّ كلارك قائلاً: «ولكن، سيدي الرئيس، إن القاعدة هي التي فعلت هذا». قال بوش: «أعرف، أعرف ولكن ... انظر إذا كان صدام متورطاً. فقط انظر. أريد معرفة أي ذرة معلومات».

بعد مرور ثلاثة أيام، في اجتماع أزمات في كامب ديفيد، ظل وولفوفيتز يتطرق إلى العراق بأنه أهم هدف للرد الأمريكي الأولي، إلى أن أسكته الرئيس في النهاية. ستكون أفغانستان أولاً، ولكن فكرة ضرب العراق كانت موضع أخذ وردّ، ولم يكن بوش غير متقبل للفكرة، وعلى أي حال، فقد حصل وولفوفيتز على قدر وافر من الوقت للإعراب عن رأيه علناً، مما سبب امتعاضاً لوزير الخارجية كولن باول. في 17 سبتمبر/أيلول، بعد ستة أيام من الهجمات، قال بوش لمجلسه الحربي: «أعتقد أن العراق كان متورطاً».

قال روبرت كاغان: «هذا ما أعتقده إلى أن أقتنع بخلافه. قد يكون بول هو الذي طرح الفكرة، ولكن كان بوش منذ البداية يفكر بشأن العراق. أعتقد أن العراق كان يشغل دماغ بوش. كيف يقوم بول الذي هو نائب وزير دفاع، ولا ينسجم مع وزير الدفاع، ولا يجتمع على انفراد مع الرئيس سوى مدة لا تكاد تذكر، بمحاربة عملاق مثل باول، أظن أنه كان الشخص الذي يلي الرئيس من حيث قوة التأثير. وهذا ما كان الرئيس يريد فعله».

وافق ريتشارد بيرل، صديق وولفوفيتز مدة تتجاوز ثلاثة عقود. قال: إن أنصار تغيير النظام في العراق لغاية 11 سبتمبر/ أيلول غير قادرين على كسب التأييد داخل الإدارة. «لقد كان ليوم 11 سبتمبر/ أيلول تأثير عميق في تفكير الرئيس، أكثر من الحجج أو المواقف التي كنت أتمسك بها أنا أو بول، أو أي شخص آخر قبل ذلك. لقد بدأ العالم في 9/11 ولم يكن هنالك تفكير في هذا الأمر من قبل. ولكن كانت هناك، في المستويات العليا من موظفي الأمن القومي، مجموعة من الناس ذوي التاريخ الفكري الواضح، الذين يستطيعون إعطاء أهواء الرئيس الجديدة إستراتيجية ومذهباً ونظرة عالمية. وقد حذر بيرل، أسوة بكاغان، من نشر أعداد كبيرة جدًّا من الأوراق في مجلات غامضة، تعالج السياسة الخارجية. إن ما كان يهم هو من يتولى زمام مناصب السلطة. قال لي بيرل في عصر يوم من فصل الشتاء، في حجرة جلوس منزله الواسع في ضواحي واشنطن: «الناس مهمون، والأفكار مهمة فيما يتعلق بالناس. ولكن الأفكار ذاتها، دعنا نوضحها على النحو الآتي: لو أن (بوش) كان قد زود إدارته

بمجموعة من الناس من اختيار برنت سكوكروفت (Brent Scowcroft) وجيم بيكر، وهو أمر كان يمكن أن يحدث، لكان الأمر مختلفاً عندئذ؛ لأنهما لم يكونا سيدخلان في أذهان تلك المجموعة الأفكار التي أدخلها الأشخاص الذين انتهى بهم المطاف في مناصب مهمة. فالأفكار لا تكون مهمة إلا عندما تستقر في أذهان الناس الضالعين مباشرة في عملية صنع القرار».

كان تشيني ورامسفيلد الشخصيتين الرئيستين اللتين عيّنهما بوش. ولم يجلب أي من الرجلين تفكيراً أصلياً استثنائياً لمناقشة دور أمريكة في العالم بعد 11 سبتمبر/أيلول، وكان نفوذهما يكمن في المنصب وقوة الشخصية. رامسفيلد، الذي كان وزير دفاع جيرالد فورد، كان رجل أعمال مدة تناهز ربع قرن، وكان أكبر اهتماماته عند عودته إلى الحكومة هو الدفاع الصاروخي، وبشكل أعم، تحويل المؤسسة العسكرية إلى قوة قتالية عالية التقانة. كان مقاتلاً بيروقراطياً متفوقاً، ولكن إذا كانت لديه أي آراء يؤخذ بها في مجال السياسة الخارجية، فقد احتفظ بها لنفسه. في أثناء حرب أفغانستان التي أعقبت 11 سبتمبر/أيلول، أصبح أكثر وجوه الإدارة ظهوراً، حيث كان يتولى شؤون الصحافة بقدر كبير من التباهي، وعندما سقطت طالبان بطريقة أسرع وأسهل مما توقع الخبراء، أصبح رامسفيلد العبقري الإستراتيجي الذي لا يجرؤ أحد على الشك فيه. ولكن عاقبة تلك الحرب قدمت مفتاحاً لتفكير الإدارة بشأن عراق ما بعد الحرب: كان الالتزام الأمريكي بتأمين وإعادة بناء أفغانستان واهياً للغاية لدرجة أن حكومة حميد كرزاي لم تكن تسيطر إلا على القليل من الأراضي خارج كابول.

في ديسمبر/ كانون الأول 2003، قال لي جوزف بيدن (Biden)، الديمقراطي من ديلاوير الذي رأس لجنة العلاقات الخارجية في عام 2002، «كان رهاني منذ أول يوم -وآمل أن أكون مخطئاً- هو أن العنصر المسيطر لهذه الإدارة سيكون الواقعيين الجديدين، تشيني ورامسفيلد، اللذين لم يعودا ملتزمين ببناء الأمة أكثر من التزام هذه الطاولة بالذهاب إلى المنزل معي في جيبي الخلفي. ومن ثم، فأنا أنظر إلى أفغانستان بوصفها أنموذجاً. إنها اللوحة التي يرسم عليها مستقبل العراق». لم يكن أحد في المستويات العليا من الإدارة أقل اهتماماً بمستقبل العراق من دونالد رامسفيلد. ومع ذلك، فقد طلب تولي شؤون العراق ما بعد الحرب وحصل عليها، وعهد بها إلى معاونيه الأكثر حماساً عقدياً، الذين وضع فيهم ثقةً عمياء، كالتي أعطاها الرئيس لرامسفيلد.

كان تشيني هو لغز الإدارة الكبير، فلم يكن لدى أحد رؤية أشد غموضاً وتمسكاً بنظرية هوبز[1] إزاء الشؤون الدولية باستثناء رامسفيلد. ولكنه كان يتمتع بموهبة الاحتفاظ بأفكاره لنفسه، ولكونه وزير دفاع بوش الابن، بدا علناً على الأقل، أنه يتمسك بآراء الجمهوريين المعتدلة نفسها، أسوة برئيسه. وعلى عكس وولفوفيتز، لم يساوره قط أي شك في حكمة الكيفية التي انتهت إليها حرب الخليج. قال كنيث آدلمان (Kenneth Adelman)، زميل تشيني وصديقه القديم، الذي عرّفه برامسفيلد لوولفوفيتز «لم يُعد تشيني النظر في ترك صَدّام في منصبه في عام 1991. فقد كان ذلك يضايق بول وليس ديك». وأضاف آدلمان أن تشيني لم يكن ينخرط على نحو خاص في مناقشات السياسة الخارجية في التسعينيات. فقد انتقد تشيني انتقاداً حاداً التدخلات التي تمت في سنوات حكم كلينتون، وفيما عدا ذلك كان منهمكاً في تسيير أعمال الخدمات النفطية لشركة هاليبرتون العملاقة في دالاس، حيث دعا، لأسباب جشعة واضحة، إلى رفع العقوبات عن إيران. ولم يظهر اسمه قط في رسالة مشروع القرن الأمريكي الجديد.

وعندما عاد تشيني إلى السلطة ليشغل منصب نائب الرئيس، لم يكن العراق من الموضوعات ذات الأولوية على جدول أعماله في الشهور الأولى من عام 2001، كما لم يكن نشر الديمقراطية حول العالم مدرجاً في جدول أعماله. ولكن يوم 11 سبتمبر/أيلول تأكّدت لتشيني نظرته الرئيسة حول طبيعة العالم. وقد حملت خطاباته، بعد الهجمات الإرهابية شعوراً بالارتياح لوجود عدو عالمي من الحجم نفسه: الشيوعية أخيراً. وقد وضع توجيه التخطيط الدفاعي لعام 1992 الذي كتبه مساعدو تشيني السابقون، الذين عادوا جميعاً للعمل في إدارة بوش الجديدة، الإطار لسياسة خارجية لما بعد 11 سبتمبر/أيلول قبل عقد من الزمن. وقد خرج تشيني الآن عن غموضه الذي خلقه لنفسه، وظهر أنه الأب الروحي لتلك السياسة، وأنه أشد المتشددين بشأن العراق. على الرغم من أنه لم يقحم الأمة قط في تغييره لتفكيره، فقد عكس موقفه بشأن نهاية حرب الخليج، وقال رتشارد بيرل عن تشيني: «كان يوم 11 سبتمبر/ أيلول نقطة تحول بخصوص تحمل خطر ترك صَدّام وشأنه. ولست

(1) تقول نظرية الفيلسوف الإنكليزي هوبز: إن للناس حقًّا رئيساً في الحفاظ على الذات، والسعي لتحقيق غايات ذاتية، ولكنهم يتخلون عن هذه الحقوق لحاكم مطلق من أجل مصلحة السلامة والسعادة المشتركتين (المترجم).

متأكداً من المسافة الفاصلة بين عربة الديمقراطية هذه والقطار الذي يجرها». ومنذ أن وضع تشيني (صَدّاماً) والعراق نصب عينيه، لم يغض الطرف عنهما قط.

أسوة برامسفيلد، أحاط تشيني نفسه بواضعي نظريات مساعدين له. لكن بخلاف رامسفيلد، أبدى بعد 11 سبتمبر/ أيلول اهتماماً جدياً بما كانوا يفكرون فيه، فقد دعا مفكرين إلى البيت الأبيض للحديث عن مستقبل العالم العربي الإسلامي. وأبدى استمتاعاً بالإستراتيجية الكبرى (دون أن يتخلى عن مقته لتفاصيل إعادة الإعمار بعد الحرب التي غرق فيها كلينتون). ومع ذلك، ظل دوره في صياغة السياسات مضللاً لكل من التقاه تقريباً. وقد قال مسؤول رفيع المستوى كان يتعامل أحياناً مع تشيني وموظفيه: «لم أرَ في حياتي شخصاً مثله. كان يأتي إلى الاجتماعات، ويجلس فيها، ولا ينبس ببنت شفة، أو أنه يسأل سؤالاً أو سؤالين جيدين حقًّا، لم يكونوا يظهرون موقفهم أو وجهة نظرهم، إلا من حين لآخر عندما تضايقهم باستمرار بخصوص شيء مثل تايوان، ولكنهم غالباً ما يموّهونه بطريقة رائعة. وبعد أربع وعشرين ساعة، أو ثمانٍ وأربعين ساعة، أو ست وتسعين ساعة، نعتقد أنهم قد اتخذوا قراراً، وفجأة يتم تنفيذ سياسة تناقض ذلك القرار بمئة وثمانين درجة».

إلى أن توقفت الدعوات الموجهة إلى بايدن للبيت الأبيض بخصوص حشد ما يلزم للحرب مع العراق، كان رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ يجتمع مع الرئيس في المكتب البيضاوي، وكان بوش يصغي إليه ويهز رأسه، متظاهراً بأنه مقتنع بحجج بايدن من أجل إرسال مزيد من القوات إلى أفغانستان، أو تخصيص مزيد من الأموال لتأمين مواد نووية روسية، بينما كان تشيني يجلس صامتاً وبلا حراك، «وكأنه ضفدع أمريكي كبير على لوح خشبي». وفجأة، كان نائب الرئيس يفتح فمه وينقّ قائلاً: «كلا، سيدي الرئيس، هذا ليس صحيحاً». وسرعان ما ينتهي الاجتماع ويدرك بايدن أن حججه قد ذهبت أدراج الرياح. وقد اعترف بايدن، قائلاً: «لم أحسن تقدير قوة تشيني». لم تأتِ قوته فقط من اعتماد رئيس جديد على نائبه الذي يفوقه خبرة، وإنما من شخصية تشيني. كان لتشيني ما دعاه ليزلي غيلب، الرئيس السابق لمجلس العلاقات الخارجية، «حضوراً قوياً على الطاولة. فهو ثاقب الرأي، سريع التفكير، ومجادل جيد، أفضل من رأيت حتى الآن. وهو أفضل كثيراً من الديمقراطيين». وقال غيلب: إن تشيني وغيره من كبار المسؤولين في إدارة بوش هم

«أشد قسوة كثيراً» مقارنة بالديمقراطيين. إنهم يرعبون الديمقراطيين ومؤسسة السياسة الخارجية، بالطريقة نفسها التي مارستها «لجنة الخطر الحالي» في أواخر السبعينيات، وذلك بالحديث عن تهديدات. «إن قسوة تشيني جعلت منه نصيراً حزبياً رائعاً. لم يكن يريد الفوز فقط، وإنما كان يريد تدمير المعارضة أيضاً».

إذا كان تشيني ورامسفيلد البيروقراطيين من الوزن الثقيل، فقد كان وولفوفيتز العقل المفكر الرائد لسياسة ما بعد 11 سبتمبر/ أيلول. ففي الأسابيع التي أعقبت الهجمات الإرهابية، حدث تقارب مثير للدهشة بين الرئيس النفطي السابق، الذي كان السيد المسيح فيلسوفه المفضل، الذي كان يمكن أن يسخر من سجله الأكاديمي الذي لم يكن جيداً، حيث لم يكن يهمّه لمجرد أنه من عائلة بوش، وبين نائب وزير الدفاع اللامع في إدارته، وهو يهودي علماني حائز على شهادة البكالوريوس من جامعة كورنل، وشهادة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة شيكاغو، وكان متأثراً بألبرت وولزتتر (Albert Wohlstetter)، وليو شتراوس (Leo Strauss) وآلان بلوم (Allan Bloom). كان بوش ووولفوفيتز -أصبحا متحررين الآن من السلطة الخانقة لبوش الأب- ينظران إلى العالم بالطريقة نفسها. وكانا يعتقدان بوجود الشر، وكانت لديهما أفكار مسيحية بخصوص ما ينبغي لأمريكة القيام به حيال ذلك الشر. وقد قال بوش الابن ذات مرة عن صَدّام: «لقد حاول قتل والدي»، ولكن فيما يخص العراق، كان بوش هو الذي اغتنم الفرصة للتخلص من عبء أوديبوس؛ ليثبت أنه سيد نفسه، وأنه أقدر من والده على التعامل مع عدو قديم.

في يناير/كانون الثاني 2002، في أول خطاب له عن حالة الاتحاد، وضع بوش علامة للسنة القادمة: فقد أعلن أن العراق ينتمي إلى «محور الشر». وفي شهر فبراير/شباط، أصدر أمراً إلى الجنرال طومي فرانكس من القيادة المركزية بالبدء في نقل قوات من أفغانستان إلى الخليج. وفي مارس/آذار، قاطع اجتماعاً بين كوندوليزا رايس مستشارته لشؤون الأمن القومي، وثلاثة من أعضاء مجلس الشيوخ، قال الرئيس: «تبّاً لصَدّام. سنتخلص منه». وبحلول أوائل ربيع عام 2002، قبل سنة كاملة من الغزو، كانت الإدارة تتجه إلى الحرب بعناد.

طوال فصل الربيع، بدأ ريتشارد هاس (Richard Haass) مدير تخطيط السياسات في وزارة الخارجية يسمع مزيداً من «حديث البيروقراطيين» عن حرب، ولكنه لم يأخذه على محمل الجد، إلى أن ذهب في شهر يونيو/حزيران لرؤية كوندوليزا رايس في البيت الأبيض من أجل اجتماعهما المعتاد حول القضايا الرئيسة في السياسة الخارجية. عندما أتيا إلى موضوع العراق، بدأ هاس يقدم لوزارة الخارجية أسباب شكوكه بخصوص حرب. قاطعته رايس قائلة: «وفّر كلامك لنفسك. فقد اتخذ الرئيس قراره بالفعل». كانت تلك مفاجأة لهاس. بإمكان كل شخص في المناصب العليا للإدارة أن يسرد حجج كلا الطرفين عن ظهر قلب؛ ولكن السؤال هو كيف يقومها؟. وقد تم وضع السياسة الآن دون إجراء أي تقويم لها. قال هاس: «لقد كان ذلك تراكماً. كان نقطة تحوّل. لم يتم اتخاذ قرار، وإنما حدث قرار، ولا يمكنك أن تحدّد متى أو كيف حدث؟».

حين اجتمعنا لتناول القهوة، لم يكن مكية على علم بهذا بعد. ولكن كان هناك حديث غير مؤكد. كان قد تحدث قبل لحظات في مؤتمر في جامعة براندیس حول العالم الإسلامي والغرب بعد 11 سبتمبر/ أيلول. وقد طرح مكية في المؤتمر إمكانية تغيير النظام في العراق، غير أن المشاركين الآخرين أخبروه بأن الحديث في هذا الموضوع خارج الحدود. وكان التوافق بين المفكرين «التقدميين» قد تحدد أيضاً: من غير المسموح التطرق للحرب مع العراق. وقال مكية بطريقته الدمثة المضطربة: «لن يسمحوا لي بالحديث عن الموضوع». وقد حيّره هذا الموقف بدلاً من إغاظته. لقد بدا مقطوع النفَس بعض الشيء، وكأنه كان يكبت انفعاله. كان هناك شيء ما يحدث. كان الحلم الوحيد الذي سعى لتحقيقه سنوات عديدة في كامبريدج يلتقي فجأة مع التاريخ، لا تتكرر هذه الفرص كثيراً في الحياة، وكان مكية مصمماً على تحقيق أقصى استفادة من هذه الفرصة. كان على اتصال بالفعل مع أعضاء في الإدارة، في مكتب نائب الرئيس والبنتاغون. كانوا يتقبلون حديثه عن الديمقراطية في العراق.

لماذا قامت الولايات المتحدة بغزو العراق؟ لا يزال من غير الممكن التأكد، ويبقى هذا أكثر شيء لافتاً للأنظار بشأن حرب العراق. قال ريتشارد هاس: إنه سوف يذهب إلى قبره دون معرفة الإجابة. لقد كان ذلك شيئاً أراد بعض الناس القيام به. قبل الغزو، لم يكن الأمريكيون يجادلون فقط حول: هل ينبغي حدوث حرب؟، وإنما حول الأسباب التي ينبغي أن تحدث

لأجلها؛ ما هي الدوافع الحقيقية لإدارة بوش، وما ينبغي أن تكون؟. منذ الغزو ونحن نتجادل، وسوف نستمر في الجدال سنوات قادمة. إن العراق هو راشومون الحروب.

للإجابة صلة بالحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. ولكن ما هذه الصلة على وجه التحديد؟

بدأ النقاش حول العراق، بينما كانت جراح الهجمات الإرهابية لا تزال تنزف، مروراً بشتاء عام 2002، وحتى الربيع، بينما كانت طواقم الحفريات تعمل على مدار الساعة طوال اليوم في رفع ركام المباني المفجرة، شاركت في محادثات لا نهاية لها تناولت كيف تغير العالم، وكيف لم يتغير؟. بعد سنوات من السياسة الحزبية التافهة والمريرة، أعاد 11 سبتمبر/ أيلول فتح أسئلة كبيرة على نحو مربك وتحرري على السواء. وكان أحد الردود الطبيعية هو الانكفاء في مواقف مألوفة، وقد فعل أناس كثيرون هذا في أمريكا. ولكن الأوقات الاستثنائية تقتضي تفكيراً جديداً. لقد بدأ للتو البحث عن بوصلة لتلك الحقبة، وكنت منجذباً لأولئك الذين يفكرون بجرأة وجسارة.

كان أحد هؤلاء هو الكاتب بول بيرمان (Paul Berman) الذي كان يعدّ نظرية حول ما يسمى الآن «الحرب على الإرهاب». كان بعض تفكيره يجري بصوتٍ عالٍ عند منتصف الليل، في أثناء تناول الطعام والشراب في مطعم صغير في حي بروكلن، حيث كنا نعيش نحن الاثنين. كان بيرمان، وهو في أوائل الخمسينيات من عمره، يعيش وحيداً في شقة قريبة تغص بأعداد قديمة من مجلة Anarcho Syndicalist Review، ومجلدات أصلية من الأدب الفرنسي والفلسفة. كان يقطن فوق بقالية فلسطينية تبعد مسافة قصيرة عن أتلانتك آفينو، حيث توجد جالية شرق أوسطية راسخة، وفيها محال سورية لبيع التحف القديمة، ومطاعم يمنية، ومكتبات تحوي كتباً في الأدب العربي، بما في ذلك أعمال بعض كبار المفكرين الإسلاميين في القرن العشرين. وبعد 11 سبتمبر/ أيلول، بحث بيرمان في مكتبات الحي، وبدأ يقرأ مؤلفات سيد قطب، زعيم الإخوان المسلمين المصريين الذي أعدمه عبد الناصر شنقاً في عام 1966. ألهمت كتابات سيد قطب عن الإسلام والغرب والجهاد العالمي غيره من المفكرين الإسلاميين، كالفلسطيني عبد الله عزام الذي ألهم بدوره أسامة بن لادن. (في أواخر الثمانينيات، كان المقرّ الرئيس للمنظمة السلفية للقاعدة، مكتب

الخدمة الأفغانية، يشغل مخزناً في 566 أتلانتك آفينو، بجوار متجر مغربي لبيع الأقمشة؛ كما كانت هناك أيضاً مساجد راديكالية على أتلانتك آفينو تتبع الشيخ المصري الضرير عمر عبد الرحمن، الزعيم الروحي للجهاد على نطاق العالم، الذي أدين في عام 1995 بتهمة التآمر لنسف جسور نيويورك وأنفاقها، إلى أن تم إغلاقها بعد 11 سبتمبر/ أيلول).

أكّدت أفكار سيد قطب النظرية التي بدأ بيرمان بتطويرها، ومفادها: إن الشبان العرب الذين قادوا تلك الطائرات الأربع إلى موت رؤيوي لم يكونوا نتاج عالم آخر، ولم يكن ما دفعهم لذلك التقاليد الإسلامية، أو فقر العالم الثالث، أو صِدَام الحضارات، أو الإمبريالية الغربية. لقد كانوا عصريين وكانت الأيديولوجية التي تمسكوا بها هم وملايين غيرهم عبر العالم الإسلامي من نتاج العالم الحديث، أو الغرب في واقع الأمر، إنه الخيال الجامح للقوة الثورية والمذابح الجماعية التي دفعت الألمان والإيطاليين والإسبان والروس (وملايين غيرهم عبر العالم) في القرن الماضي إلى أعمال مماثلة من الموت الرؤيوي. كان لهذه الإلديولوجية اسم: الاستبدادية. وكان كبار مفسّريها هم أورويل (Orwell)، وكامو (Camus)، وكويستلر (Koestler)، وآرندت (Arendt)، وسولجنستن (Solghenitsyn). كان مزاجها قد انكسر بحلول عام 1989، أما في العالم الإسلامي، الذي تخلّفت فيه الحداثة أجيالاً متعاقبة، فقد كان المرض ينتشر. كان بيرمان يقول: إن الحركة الإسلامية هي حركة ينبغي أن يكون الغربيون قادرين على إدراكها، إلا إذا أعمى أبصارهم الإيمان بالعقلانية التي لا ينبههم لوجودها سوى حادثة بحجم 11 سبتمبر/ أيلول. وحتى في ذلك الوقت، يبقى الدافع لعدم الرؤية هو الغالب.

إن الاستبدادية هي ثورة ضد الليبرالية. والإجابة عنها هي الليبرالية، أي الأفكار الليبرالية (لم يكف بيرمان قط عن الحديث عن حرب الأفكار)، ولكن أيضاً الليبرالية المسلحة، ليبرالية دون حلم بالفردوس. كان بيرمان من جيل عام 1968، وكان لا يزال يتحدث بولع عن رفاقه في الحركة النقابية الفوضوية الصغيرة. ولكن بحلول عام 1989، عقد صلحاً مع الليبراليين، وأصبحت سياسته قريبة من سياسة بعض الليبراليين في أثناء السنوات الأولى من الحرب الباردة، ألا وهي مناهضة الاستبدادية ومناصرة الديمقراطية. وفي العقد الذي خلف ثورات 1989، قلّ وضوح هذه السياسة بعض الشيء. كانت الكوارث

الإنسانية في إفريقية، والمناوشات في مناطق حظر الطيران فوق شمال العراق وجنوبه، كلها أشياء يصعب فهمها من منطلق حركة التاريخ الهيغلية[1] (Hegelian) إزاء حرية الإنسان. حتى حروب الفاشية الصربية كانت تبدو هزات ارتدادية، تتجه من آخر مكان في أوروبة، ولم تتلقَّ الأنباء من الخارج. بعد 11 سبتمبر/ أيلول، وجد بيرمان (وسواه من بين الليبراليين واليساريين واليمينيين) طريقه للعودة إلى القرن العشرين، عصر الأيديولوجية وما أحدثته من إثارة فكرية هائلة. وفجأة، عادت الحياة إلى جميع كتب التاريخ الحديث، والسياسة التي تعج بها شقة بيرمان بالإضافة إلى الكتب الجديدة التي ألفها أمثال سيد قطب.

لقد انكب بيرمان على مشروعه بضراوة. لا بد أنه قضى أسابيع طويلة لم يخرج فيها من شقته. لقد سمى مشروعه «واجباً حربياً»، لم لا، وقد أصبحت نيويورك خطاً أمامياً؟. اعتقد بيرمان اعتقاداً راسخاً أن من واجب المفكرين رأب الصدع الذي أصاب للتونسيج عالمنا. في رأيه، تكمن الإجابة في الأدبيات والفلسفة بالقدر نفسه من السياسة فضلاً عن الخطط. ذات ليلة، لدى مغادرته موقعه مدة طويلة بما فيه الكفاية للمشاركة في وجبة متأخرة في أحد المطاعم الصغيرة، أعلن قائلاً: إذ وجدت نصاً أصلياً» كان من تأليف كامو المتمرد (The Rebel)، مع عنوان ثانوي قصة قصيرة حول رجل ثائر (An Essay on Man in Revolt). لم يكن الإرهاب العدمي بالشيء الجديد؛ لقد عاد الخاطفون إلى الثورة الفرنسية، فقد كتب كامو «هنا، القتل والانتحار جانبان من النظام نفسه»، ومن ثم أعطى بيرمان عبارة توحي بالفكرة العامة للكتاب، كانت نوعية محادثته في تلك الليالي مملة، ومع ذلك مثيرة بلا جدال، تحت وطأة وسواس مسوغ. كان الارتعاش بادياً عليه تقريباً نتيجة اكتشافاته، على الرغم من أن العمل كان شاقاً ومثبطاً للعزيمة، وكان بيرمان شخصاً مولعاً بتقويم الذات الصارم، كان يطلب شطيرة اللحم والجبن والنبيذ الأحمر (كانت جميع النادلات يعرفنه) وكان ينقر بإصبعه على الطاولة لحناً لا يسمعه إلا هو (كان يعزف فيولا الجاز)، أو كان يهز الإصبع نفسها في الهواء على سبيل التوكيد، وكان يبدأ سرداً لروايات فكتور هوغو، وتفجيرات العدميين الروس في أواخر القرن التاسع عشر، التي قد توصلنا، على المنحنى العنيد لتفكير بيرمان، إلى أحدث الهجمات الانتحارية في القدس، وآخر بلاغ ألقاه ابن

(1) الهيغلية هي فلسفة هيغل التي تضع الحقيقة النهائية في الأفكار بدلاً من الأشياء، وتستخدم الجدلية لفهم فكرة مطلقة خلف الظاهرة (المترجم).

لادن من جبال كوش الهندوسية. وكنت أستمع إليه وأطرح من حين لآخر سؤالاً مشككاً، وأنا معجب بتفانيه في مشروعه (من سواه كان يحاول حقًّا حل هذا الشيء؟)، وكنت متعاطفاً في أغلب الأحيان، لكنني كنت قلقاً أيضاً بشأن نزعة بيرمان إزاء الحركات الفكرية الكاسحة المزيلة للتمييز. فما علاقة نظريته مثلاً بالعراق؟

لم يكن من الصعب رؤية أن حزب البعث العربي الاشتراكي في بغداد كان استبدادياً، وقد أوضح مكية هذا في كتابه جمهورية الخوف، وكان النظام يمسك بزمام السلطة عبر عبادة الزعيم، ونشر الرعب عبر أعمال العنف التي لا تنتهي ضد مواطنيه، ووكالات الأمن المتشابكة الموجودة في كل مكان، والحروب العدوانية المتواصلة، ومناخ التفكير التآمري وجنون الاضطهاد إزاء الأعداء الصهاينة والإمبرياليين. يبدو أن (صَدّاماً) قد شكل نظام حكمه على غرار كتاب أورويل (Orwell) بعنوان 1984، مئة بالمئة حتى شارب الأخ الكبير (Big Brother's Mustache). كان بطله هو سآتين، الذي كان صدام يشبهه أكثر من أي دكتاتور آخر في العالم. كان ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث في دمشق في أوائل الأربعينيات، (الذي يوجد قبره في بغداد)، متأثراً تأثراً عميقاً بأيديولوجية النازية. ولكن البعثية -أسوة بأسلافها الأوروبيين- كانت علمانية بالاسم فقط. فقد كانت مناوئة لأنظمة الحكم والإيديولوجيات الإسلامية. وكانت علائم التفسخ والانحلال بادية عليها. وقد ولت أيام قدرتها على تحريك جماهير الشعب إلى حالات مسعورة من الحقد والعنف. إذن، ما سبب خوض حرب ضد العراق من أجل محاربة القاعدة؟

أجاب بيرمان بالقول: لأن البعثية أحد «الأنظمة الاستبدادية المسلمة»، أما القاعدة فهي إسلامية، والحرب ضد الإرهاب ليست مجرد عمل بوليسي أو حملة عسكرية. كانت، «حرباً فكرية»، أسوة بالحرب ضد الفاشية والحرب الباردة. كان النصر يتطلب أن يتخلى ملايين الناس عبر العالم الإسلامي عن الأفكار السياسية الفتاكة. وسيكون ذلك عملاً طويلاً، شاقاً ومعقداً. ولكن من شأن الإطاحة بصدام وإقامة ديمقراطية عراقية تكون رأس جسر إلى الشرق الأوسط توضح أن الولايات المتحدة تقف إلى جانب العرب ليبراليي التفكير مثل كنعان مكية وضد الاستبداديين وأفكارهم. ومن شأن تغيير نظام الحكم أن يوضح أننا أيضاً، قادرون على المحاربة من أجل فكرة الحرية، فقد كان استعداد الديمقراطية

الليبرالية للدفاع عن نفسها والمحاربة من أجل مبادئها دائماً موضع شك. كان ألكسيس دي توكفيل (Alexis de Toqueville) قلقاً بشأنها؛ كما استهزأ بها هتلر وموسوليني: وهذا ما فعله ابن لادن مؤخراً. ولكن أكبر توكيد لهذا الاستعداد قدمه لنكولن في غتشبرغ، حيث أقسم إن أمة (ليست أمته هو فقط، أي أمة) «تؤمن بالحرية وتكرس نفسها للفكرة القائلة: إن جميع الناس قد خلقوا متساوين» يمكن أن تدوم طويلاً.

لم يكن هذا نوع التفكير الذي يجعل المرء متحمساً للانضمام إلى مجلس العلاقات الخارجية. لم يكن بيرمان مهتمّاً على نحو خاص بالإستراتيجية العسكرية، أو بالقضايا المتعلقة بالسياسات. وكان من المرجح العثور على إجابات لما حدث في 11 سبتمبر/ أيلول في كتابات دستويفسكي وكامو، وكذلك في مؤسسة بروكينغ أو في صفحات مجلة Foreign Affairs (الشؤون الخارجية). وكان يرد بشكل عميق على الحدث (كانت أحاديثنا حتى وقت متأخر من الليل تعود وتتطرق إلى حجم الدمار على ضفة نهر الشرق، وإلى الدليل المروّع على طموح الإسلاميين) وكذلك على ارتفاع شاهق من التعابير المجردة، حيث تصبح التفاصيل مجرد ذرات.

كانت مدة السنة ونصف السنة الفاصلة بين الهجمات الإرهابية وغزو العراق مليئة بأفكار عدائية كبيرة. أسوة بالثورات الليبرالية في عام 1848، أو الثورة البلشفية عام 1917، أو الربيع اليوطوبي في عام 1968، فقد أعطت أحداث 11 أيلول/سبتمبر المفكرين السياسيين الكثير من العمل. طوال عام 2002، بينما كانت إدارة بوش تنتهج طريق المواجهة الحتمية مع صَدّام، ظهر في الوقت نفسه، خارج جدران السلطة، صخب من المناظرات بشأن الحرب القادمة، وطبيعة العدو، ودور أمريكة في العالم. وقد كانت الآراء حامية الوطيس عبر تنوع مذهل من العقول.

استطاعت بعض هذه العقول الوصول إلى المناصب العليا في الحكومة. برنارد لويس (Bernard Lewis)، البريطاني الأصل والأستاذ الفخري البارز في الدراسات الشرق أوسطية في جامعة برنستون، الذي قدمه ريتشارد بيرل إلى واشنطن الرسمية في أوائل السبعينيات، أصبح الدليل الرئيس لصقور الإدارة إلى العالم العربي. جنباً إلى جنب مع فؤاد عجمي، العالم الدمث اللبناني المولد في مدرسة جون هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة، التي كان

صـديقه بول وولفوفيتز عميداً لها في أثناء التسـعينيات. في عام 2002، جرى استدعاء لويس وعجمي للاجتماع مع ديك تشيني. أخبرا نائب الرئيس ما يستطيع الجميع قراءته في كتب مثل كتـاب (What Went Wrong?) (أيـن كان الإخفاق؟) من تأليـف لويس وكتاب The Dream Palace of the Arab (قصر أحلام العرب) من تأليف العجمي. إن العالم العربي والإسلامي الذي كان عظيماً ذات يوم هو رجل مريض، مصاب بدكتاتوريات فاسدة، وشعوب مضطهدة، وإيديولوجيـات متطرفة، ونظريات مؤامرات مذعورة، وتخلف ثقافي واقتصـادي. ظلت هذه الحضـارة عقوداً، بل قروناً من الزمن تتخلف، بينما تقدّم الغرب وبقية العالم نحو الحداثة. وكان هذا الانهيار مصدر إذلال وغضب لملايين من العرب والمسلمين غير العرب. في السنوات الأخـيرة، أنتج المرضـ تهديداً امتد أبعد من حدود المنطقة. وقد سـاعد النفوذ الأمريكي في إبقاء العالم العربي في حالة من الانحدار، وذلك بدعم أنظمة الحكم الاستبدادية المتصلبة؛ ولا يمكن عكس مؤشـر هذا الانحـدار إلا إذا قطعت أمريكة صـلتها بتاريخها في المنطقة؛ إذ ليسـ بمقدور العرب إنقاذ أنفسـهم مـن ورطتهم التاريخيـة، وإنما هم بحاجة إلى صـدمة أجنبية عنيفة لتهزهم. ومن شأن الإطاحة بنظام الحكم العراقي أن يقدّم هذه الصدمة.

كتب عجمي في أوائل عام 2003 يقول: «إضـافة إلى الإطاحة بنظام حكم صَـدّام حسين وتفكيك أسـلحته الفتاكـة، يجب أن يكون الباعث المحرك لمسـعى أمريكي جديد في العراق، وفي الأراضـي العربية المجاورة، هو تحديث العالم العربي». ينبغي صرف النظر عن الضجة التـي لا مفر منها من جانب العرب وعدها «غضـب شـارع» لعـالم عربي محبط من «الحالة الفطرية لثقافة ما زال عليها أن تتحمل المسؤولية الكاملة عن الجراح التي أنزلتها بنفسها». كان عجمي الذي يستخدم في كتاباته الإيقاعات القديمة ومفردات من يتوق للماضي، يقترح مشـروعاً أمريكياً بحجم المهمة الاسـتعمارية البريطانية في الشرق الأوسط: «قيادة مشروع إصـلاحي يسـعى إلى تحديث المشهد العربي وتحويله. وسـيكون العراق نقطة البداية، ويقع وراء العراق تقليد سياسي واقتصادي عربي وثقافة كانت كروبها وإخفاقاتها ظاهرة بقسوة».

كان عجمي ولويس خبيرين مختصّـين بالمنطقة. وقد انضـمّ إليهما في مناصرة الحرب القادمة ضـد العراق مزيج من غير المتخصصـين من كتّاب وصـحفيين وأساتذة وناشطين. بـادئ ذي بـدء، كان هنـاك روبرت كاغـان، الذي كان هو ووليام كريسـتول قـد دعما جون

ماكين مرشحاً «للعظمة القومية» في أثناء انتخابات الجمهوريين الأولية عام 2000؛ وكانت دعوة بوش الابن إلى «التواضع» والمصالح المحددة بشكل ضيّق في السياسة الخارجية تمثل كل شيء جادل كاغان ضده في أثناء التسعينيات. ولكن بعد 11 سبتمبر/ أيلول، بدأ بوش يظهر على أنه محافظ جديد، وأصبحت صحيفة The Weekly Standard نصيره الصحفي الأكثر نفوذاً وتأثيراً، حيث كانت تتمتع العلاقة المميزة نفسها التي كانت بين صحيفة New Republic السابقة، وبين وودرو ويلسون عندما زج بأمريكة في الحرب العالمية الأولى. في عام 2002، كتب كاغان وكريستول يحثان على التدخل العسكري في العراق بوصفه جزءاً من إعادة إصرار أمريكة على الزعامة العالمية: «إن فشل الولايات المتحدة بالمجازفة، وتحمل المسؤولية في التسعينيات مهّد الطريق لأحداث 11 سبتمبر/ أيلول». ما من شيء أقل من بقاء «الحضارة الليبرالية» نفسها كان يعتمد على عمل أمريكي في العراق.

في صيف عام 2002، كتب كاغان مقالة طويلة سماها «الأمريكيون من كوكب المريخ، والأوربيون من كوكب الزهرة» سرعان ماهربت من الصفحات الغامضة لمجلة Policy Review وأصبحت موضوع نقاش مكثف على جانبي الأطلسي (وقد تم نشر المقالة لاحقاً في كتاب عنوانه «عن الفردوس والقوة» (Of Paradise and Power)). بعد أن كان قد أرسى الكثير من الأعمال التمهيدية الفكرية في التسعينيات للسياسة الخارجية الحازمة للإدارة الأمريكية، وصف كاغان الآن حقبة جديدة افترقت فيها أمريكة وأوروبة. فقد بدأت أوروبة التي أضعفتها حروب القرن العشرين، تسعى إلى التعاون والسلام عبر مؤسسات متعددة الأطراف مثل الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة. أما أمريكة، التي أصبحت في أوج الزعامة العالمية، فهي قوية بما فيه الكفاية؛ لتواجه بمفردها الوحوش في الغابة خارج معسكر الغرب المتمدن. ستستخدم أمريكة القوة؛ لأنها قادرة على ذلك، وينبغي ألا تتوقع مساندة من أوروبة. الزهرة، المريخ؛ كانت، هوبس؛ الفردوس، القوة؛ لم تعد أوروبة وأمريكة تعيشان في العالم ذاته، كما فعلتا في ظل تحالف الحرب الباردة، ويستحسن أن يعترف الجميع بذلك. كانت مقالة كاغان موجزاً فلسفياً لاستقلالية السياسة الخارجية.

كان هناك معهد المشروعات الأمريكي، وهو عبارة عن فريق خبراء استشاري تمتد مجساته عميقاً داخل الإدارة. في حلقات دراسية وفي ورقات، بدأ زملاء المعهد المقيمون في تطوير نظريات كبيرة عن إمبراطورية أمريكية لا تضاهى وغير اعتذارية، وأقوى من

أي إمبراطورية أخرى في التاريخ، تنشر الديمقراطية بالقوة، وتؤمن المصالح القومية عبر تصدير القيم الوطنية، بدءاً بالعراق. أعلنت دانيال بلتكا (Danielle Pletka)، إحدى نواب رئيس معهد المشروعات الأمريكي، والمساعدة السابقة للسيناتور جيسي هلمز (Jesse Helms): «عليك أن تبدأ من مكان ما. هناك دائماً مليون عذر لعدم فعل شيء كهذا». كتبت بلتكا شهادة القوة التي قدمها كاسبار واينبرغر، وزير دفاع ريغان، إلى الكونغرس في أغسطس/ آب 2002، التي تضمنت هذه الكلمات: «يقول الناس: إن الفوضى ستحدث. إنني لا أتفق مع هذا القول، ولكن علي الاعتراف صراحة أن الفوضى ستكون أفضل من صَدَّام».

كان هناك فكتور ديفيز هانسون، وهو مزارع عنب مكافح في وادي كاليفورنية الأوسط، وأستاذ للتقليديات في جامعة ولاية فرسنو. أورد هانسون في كتاباته العلمية نظرية تقول: إن أثينا أصبحت أعظم قوة عسكرية في البحر الأبيض المتوسط؛ لأن جنودها كانوا من مزارعي ومواطني «اليومان» (Yeoman): كانوا يقاتلون على أنهم رجال أحرار من أجل إقامة جمهورية، وليس على أنهم عبيد يقاتلون من أجل طاغية؛ وكانوا يحاربون بتعقل وليس بالخرافات، مما أعطاهم تفوقاً في ميدان المعركة. وقد أصبح هذا التزاوج بين الأيديولوجية الديمقراطية والقوة الإبادية مفتاح نجاح الحضارة الغربية على مدى القرون الآتية، وصولاً إلى الإمبراطورية الأمريكية، بوساطة مهمتنا لإرساء الديمقراطية وقوة أسلحتنا الهائلة. في الأشهر التي أعقبت 11 سبتمبر/ أيلول، على صفحات المجلة المحافظة (National Review)، كان تفسير هانسون لأثينا قبل الحقبة التقليدية يجعل منه مؤيداً عنيفاً لاستخدام قوة الولايات المتحدة الساحقة في كل مكان في العالم قد يكون لنا فيه أعداء. استرعت كتاباته انتباه نائب الرئيس تشيني وأكسبت الأستاذ - المزارع الكئيب الميال إلى البلاغة المحرضة على الحرب دعوة للعشاء في البيت الأبيض.

لم يكن حضور أستاذ الآداب اليونانية والرومانية لتناول العشاء مع إدارة بوش أمراً غير اعتيادي. فقد كان عدد من المحافظين الجدد -كان أبرزهم وولفوفيتز وكثيرون غيره في مناصب صنع القرار في إدارة بوش، وسابقاً في إدارة ريغان- من تلاميذ ليو شتراوس أو تلميذه آلان بلوم. هاجر شتراوس من ألمانية في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين وانتهى

بـه المطاف في جامعة شـيكاغو يدرّس أفلاطـون، وزينوفون، ومايمونيدس، ومكيافيللي، وسينوتزا، ونتشه جيلين من الأمريكيين الشبان المسحورين. كان مشروع شتراوس الفكري هو التشكيك في المذهب المادي الراضي وعلمانية الغرب الحديث، وإعادة طلابه للحصول على حكمة أعمق وقراءات عن كثب للأعمال السياسية التقليدية بدءاً باليونانيين. وقد أدّت شـدته البيداغوجية وخيبة أمله بما رآه نسـبية، أو حتى عدمية الفكر الليبرالي إلى تحويل أجيال عديدة من الطلاب الذين سـبق أن اسـتمالتهم اضطرابات سـتينيات وسبعينيات القرن العشرين إلى نوع من التشاؤم الثقافي، إلى أعضاء في طائفة شتراوس.

لقـد صـادفت هذه الطائفة وأنا في السـنة الأولى من دراسـتي في جامعة يـال في أواخر السـبعينيات. في القاعـات التي يدرّس فيها أسـاتذة شتراوسـيون شـبّان، وكان أسـلوبهم الاجتماعـي الصـعب وابتسـاماتهم الغامضـة الباهتة، تعطي المـرء إحساسـاً بوجود هيئة سـرية من الفهم لا يسـمح إلا لقلة مختارة بالانتسـاب إليها. كانوا يدرّسون المواد التقليدية بترجماتهم (صـيغة بلوم لكتاب الجمهوريـة (Republic) لأفلاطون، مثـلاً) لأن العبارات الصحيحة للأفكار الرئيسة كانت تكشف عن معانٍ مستورة- فن الإخفاء الذي كان موضوع كتاب شتراوس لعام 1952 بعنوان (الاضطهاد وفن الكتابة) (Persecution and the Art of Writing). جادل شتراوس بأن المفكرين كتبوا بروح معدة لفئة قليلة، على مستويات مختلفة، تقصـياً غير مقيّد للحقيقة المتاحة لأشـد القراء حكمة، وبحثاً أشد حرصاً ومسؤولية لعامة الناس؛ لأن الفلسـفة خطرة على السلطة، وفي نهاية المطاف، على الفيلسوف نفسه، حسبما اتضـح لسـقراط. أراد شتراوس إنقاذ الفلسـفة من الاعتدال المريح لعصـر التنوير. وأعاد فتح أسـئلة عن الحقيقة والسياسـة والروح التي بدا أنها استقرت بفعل العلوم العقلانية قبل وقت طويل من القرن العشـرين. وفي هذا البلد، تمسّـك أتباع شتراوس المتحمسون بتعاليمه وشـوّهوها، وكانوا يزيلون كل سـخرية في السـعي إلى حملتهم الأمريكية الفاضلة بصلابة، والغريبـة ضـد انزعاج العـالم الحديث وقلقه، الذي لم يكن الفسـاد فيه ليصـل إلى ما هو موجود في الجامعة نفسـها. في جامعة يال، كان هؤلاء الأتباع -وكلهم ذكور تقريباً- يضعون ربطات عنق فراشـية الشكل، وينضمون لنوادٍ تحمل أسـماء توحي بالأرستقراطية ويبرزون عموماً جوّاً من المعرفة الخاصة و«الامتياز».

في عام 1981، استخدم وولفوفيتز، تشارلز فيربانكس، أحد الأساتذة الشتراوسيين في جامعة يال، للعمل مع الكادر المسؤول عن تخطيط السياسات في وزارة الخارجية في إدارة ريغان. وعلى مدى العقدين الآتيين، حين اكتشف الشتراوسيون والجامعة الأمريكية أنهم متنافرون بشكل متزايد، تحوّل الشتراوسيون ونفوذهم إلى واشنطن، وانتشروا في سائر أنحاء أرخبيل المنشورات المحافظة، والجماعات المناصرة، ومجموعات الخبراء الاستشاريين، والمؤسسات. مع الصعود الجمهوري في الكونغرس وانتخاب بوش الابن، أصبح الشتراوسيون (وعلى نحو أعم المحافظون الجدد) الحبل الشوكي الفكري غير المرجح للحزب في السلطة. وقد اقترنت النظرة النخبوية المنتجة في أوروبة للعالم الحديث إلى حدّ ما بالميول السياسية المشرقة الأمريكية بالكامل للرأسمالية الانتصارية والولاء الثقافي، والقومية المغالية في الوطنية، تحت حكم أكثر الرؤساء مناهضة للفكر على الأقل منذ حكم وارن ج. هاوردنغ. أمريكة هي سدوم (Sodom) وهي نور العالم - الأمل الأخير لفكرة الحق الطبيعي القديمة.

لاحظ مارك ليلا (Mark Lilla)، الأستاذ في لجنة جامعة شيكاغو المعنية بالفكر الاجتماعي، حين كان يدرّس شتراوس ذات يوم، قائلاً: «كل غريب يلقي نظرة عاجلة على مجلة من مجلات المحافظين الجدد اليوم يستغرب كيف يمكن لهذه الأفكار الأخروية والرؤيوية بخصوص أمريكة أن توجد في عقل واحد، دون بذل جهد ما نحو المصالحة. ومع هذا، تروق هذه الأفكار للشتراوسيين السياسيين، الذين تنبض قلوبهم بلا انتظام لكل من سوسا[1] Sousa وفاغنر[2] Wagner» وتابع ليلا بطريقة مملة ساخرة: إن مناسبات المحافظين الجدد في واشنطن اتخذت مظهر عرض كرنفالي مهووس، حيث كان بين «مفكري نيويورك الأكبر سناً، وأساتذة في المهجر من جامعات صحيحة سياسياً، والحالمين الاقتصاديين، ومتحمسي تيدي روزفلت، ودعاة التدريس المنزلي، والبروتستانت الإنجيليين، وكاثوليك القداس اللاتيني، والليكوديين، وشخصيات من راديو الصدمات»، شتراوسيون موجودون «يشرحون الصلة المنطقية بين الفلسفة القديمة، وأحدث بيان صحفي صادر عن معهد المشروعات الأمريكي. قد يحتاج الأمر إلى عبقري هزلي، وأرستوفانس[3] أمريكي، للاستحواذ على غرابة هذا العالم الصغير».

(1) (Sousa) هو جون فيليب سوسا، قائد فرقة موسيقية وملحن أمريكي (المترجم).

(2) (Wagner) هو رتشارد فاغنر، ملحن ومؤلف موسيقي ألماني (المترجم).

(3) أرستوفانس هو أكبر شعراء اليونان الهزليين، كان يهجو رجال الدولة والفلاسفة والشعراء والشعب، حتى الآلهة. لهذا حظر حكام أثينا تمثيلها في حياته (المترجم).

في أثناء مقابلة أجراها معه أحد الصحفيين بعد شهر من سقوط بغداد، سخر بول وولفوفيتز، تلميذ شتراوس سابقاً، من فكرة وجود صلة شتراوسية بحرب العراق، وقال: «إنها نتاج أذهان محمومة، ما أعنيه هو أني أخذت منهجين رائعين من ليو شتراوس بصفتي طالب دراسات عليا. ولا أجد الفكرة القائلة: إن لهذا أي صلة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة إلا فكرة مثيرة للضحك».

لا يمكن عد ليو شتراوس، الذي ظلمه أتباعه ونقاده على السواء، الذي ولد في عام 1899 ومات في عام 1973، مسؤولاً عن غزو العراق. فالمحافظون الجدد لا يجتمعون سرّاً بعد ساعات في مبنى وزارة الدفاع، أو في مكاتب مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات لإمعان النظر في نسخ عليها الكثير من الخطوط التوكيدية من كتاب Natural Right and History (الحق الطبيعي والتاريخ) بحثاً عن توجيه للإطاحة بصدام. ليست هناك مؤامرة شتراوسية. قال ريتشارد بيرل: «الناس في واشنطن لا يقرؤون الكتب».

ولكن المحافظين الجدد، سواء داخل الحكومة أو خارجها، يمتلكون حقًّا عادات ذهنية مشتركة، ذات عواقب بعيدة المدى في العالم الحقيقي. إن هذه الأذهان المحمومة موحّدة في الجرأة واليقين. فلما كنا محاطين بأعداء يفتقرون للقوة والحيوية في الوهن العميق للمؤسسات الأمريكية من جامعات ووسائل إعلام وبيروقراطيات ومحاكم، يحتضنون حقيقة لا يمتلك أي شخص غيرهم الشجاعة أو الخيال لرؤيتها. إنهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم متمردون، يحاربون ضد مؤسسة ليبرالية مرهقة يعوزها الوضوح المعنوي للدفاع عن نفسها، فضلاً عن البلد - ولم يتبقَّ لديها مبادئ للدفاع عنها. إنهم طليعة الديمقراطية.

ولكن أليست «الطليعة» مرتبطة تاريخياً باليسار؟ أليست الزعامة الرئيسة للثورة؟

في الواقع، فإن دعاة الحرب الكثير منهم كانوا يشبهون بشكل غامض طلائع الصراعات السابقة. قام دانيال كوهن بندت (Daniel Cohn Bendit)، الذي كان يعرف بداني الأحمر (Dany the Red) في مايو/أيار 1968 حين كان زعيماً شاباً للثورة الطلابية في باريس، وأصبح منذ ذلك الحين عضواً في البرلمان الأوروبي، بمناقشة ريتشارد بيرل قبل أسابيع قليلة من الغزو. وقد قال داني الأحمر لأمير الظلام: «تتصرف حكومتكم مثل البلشفيين

في الثورة الروسية. أنتم تريدون تغيير العالم بأسره!» من الممكن أن نتصور أن هذا التشبيه راق لبيرل. فالفكر الرؤيوي، ورغبة مجموعة صغيرة تمتلك فكرة كبيرة لدفع التاريخ في اتجاه جديد على نحو مثير، لا ينتمي حصراً إلى اليسار ولا إلى اليمين؛ بل إنه غالباً ما يكون صفة لأفراد يهاجرون من قطيع لآخر دون تريث؛ لتناول حقائق عديمة الطعم تحت سماء الاعتدال القاتمة. لقد كان المحافظون الجدد الأصليون يساريين في يوم من الأيام، لم يكونوا ليبراليين عاديين من أتباع أدلاي ستيفنسون (Adlai Stevenson)، أو جون إف. كنيدي (John F. Kennedy)، وإنما كانوا من أتباع تروتسكي ولفستون وشافت، ودخلاء غيرهم من عالم دفيئة مفكري نيويورك في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته، أخبرني المناقش البريطاني المحترف كريستوفر هتشنز (Christopher Hitchens) «ذلك الجمهور»، مجموعة المحافظين الجدد، يوجد في مكان ما في قشرة دماغهم اسم ليون تروتسكي. لو كنت لأقول «كرونتسادت» لترينت لوت (Trent Lott)، فلا أعتقد أنني سأحصل على الكثير لقاء عنائي، وذلك في إشارة إلى تمرد البحارة الروس في عام 1921، الذي أخمدته قوات تروتسكي. ولكن لو كنت لأقول «كرونتشادت» إلى بول وولفوفيتز، أعتقد أنه سوف يدرك تماماً ما أتحدث عنه».

لعل هذا يفسر سبب مجيء العديد من أبرز صقور العراق من اليسار. كان أبرزهم هتشنز نفسه. بعد الهجمات الإرهابية، اختلف مع رفاق مثل نعوم تشومسكي (Noan Chomsky) وإدوارد سعيد، وتخلى عن زاويته الطويلة الأمد في مجلة (الأمة) (The Natiom)، وأصبح مؤيداً علنياً لبوش، وتأهب لخوض معركة مع ما سماه «الفاشية الإسلامية».

قد يكون هتشنز لطيفاً ومتعقلاً في السر، بقدر ما كان محتقراً لاذعاً في العلن وفي المطبوعات. عندما جلست معه لتناول الغداء قرب شقته في واشنطن في أواخر عام 2002 -وكان غداء باهظ الكلفة دام طوال بعد الظهر- بدا وكأنه وجد شبابه في اليسار الجديد. فقد حل المؤتمر الوطني العراقي التابع لأحمد الجلبي محل الحركة الاشتراكية الثورية، وكان هتشنز مستمتعاً بالحرب القادمة. وقال: «لدي شعور يفوق ما اعتدت عليه في الستينيات حين كنت أعمل مع الثوريين. هذا هو ما أفعله الآن إنني أساعد حركة سرية يائسة جدًّا، مما يذكرني بأيامي الأفضل على نحو مثير للأسى والشفقة. فأنا لا أرى التلويح بلافتة مذكور

عليها شعارات صَدّام حسين مثل: «لا للحرب على العراق»، مما يخلط بين العراق وصَدّام، وهو ما يريده - سياسة ثورية».

إن الإطاحة بصدّام بزعامة أمريكية ستكون «ثورة من أعلى» - وهي عبارة ابتكرها ليون تروتسكي بعينه، ليصف تركيز سلطة سآتين في أيدي اللجنة المركزية الشيوعية. لقد كان تروتسكي يقصد بها السخرية، وأنا على يقين تماماً أن هتشنز لم يقصد ذلك. لقد حوّل كل القوة البلاغية التي وجهها ذات يوم ضد مؤسسة السياسة الخارجية المحافظة ضد الإسلاميين واليساريين المناهضين للحرب. ولوّح باحتقاره للدين مثل تلويحه بمسدس، وخصوصاً تجاه إيمان الجهاديين المولع بالقتال. توعد هتشنز قائلاً: «تريد أن تكون شهيداً؟ إنني هنا لأمد يد المساعدة».

لقد وجد هذا العلماني المناضل نفسه الآن أخاً في السلاح مع مسيحيين إنجيليين ويهود أرثوذكس نيابة عن الديمقراطية الليبرالية في العالم العربي والإسلامي. وإذ أمضى هتشنز معظم حياته يهاجم السياسة الخارجية الأمريكية، فقد توصل إلى استنتاج مفاده أنه «بعد أن ينجلي الغبار، لن تبقى ثورة قائمة إلا الثورة الأمريكية، إن الأمركة هي أكثر قوة ثورية في العالم. وفي كل البلدان تقريباً فإن أكثر الأشياء التي يمكن القيام بها ثورية هو تبني الأمريكيين». كنت دائماً من أتباع بين «Paine ite». كان هتشنز يتطلع إلى شرب الشمبانيا في بغداد مع رفاقه العراقيين في يوم عيد الحب عام 2003.

كان المؤمنون على كل من اليمين واليسار يقترحون أحد أشد المنعطفات جرأة في تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية: لإقامة «رأس جسر من الديمقراطية العربية في الشرق الأوسط»، بقوة السلاح كما سماها بول بيرمان. وضع دمغة سياسية وعسكرية أمريكية، مع حكومة صديقة وقواعد دائمة في قلب المنطقة، حيث تحصل القاعدة على معظم مجنديها. وإحضار صندوق الاقتراع وبرنامج الشؤون العامة إلى مدن واهنة لفحتها الشمس، وإلى صحارى قبلية. (ما أتفه الهدف النهائي لهذا الحماس كله!) تكمن جاذبية هذه الفكرة في جرأتها؛ إذ من شأنها، أن تخرج التاريخ من هوة سحيقة بدفعة قوية واحدة. كما أن من شأن الحرب في العراق، عبر رد فعل تسلسلي، إضعاف دكتاتوريات الشرق الأوسط وتقويض إيديولوجيتها الفتاكة والبدء في نشر بلسم الديمقراطية الليبرالية. إن الطريق إلى القدس،

والرياض، ودمشق، وطهران تمر عبر بغداد. أما الإصرار على معالجة حالة الشرق الأوسط الراهنة المريضة والخطيرة بحذر، فسيكون أمراً تافهاً ولا يحتمل. فمن لا يختار قطع أحد الأطراف بدلاً من الإصابة بالغنغرينا؟ بالإرادة والدهاء، تستطيع أمريكة أن توجه ضربة قوية إلى الإرهاب والاستبداد والتخلف، وتتخلص من أصعب مشكلات المنطقة.

إن أفكاراً بهذه الضخامة تجذب تحالفات غريبة. لقد نما التزاوج المؤيد والمعارض على السواء باختلاط غريب، حتى أصبح التفكير بمنطق اليسار واليمين بدلاً من منطق المؤيدين والمعارضين للتدخل، أو الثوريين والواقعيين أمراً غير مجدٍ. فقد وجد الواقعيون المحافظون من المؤسسة الجمهورية أنفسهم يتفقون بالرأي نفسه مع اليساريين المناوئين للإمبريالية، والانعزاليين من أقصى اليمين، بينما أصبح المحاربون القدماء الليبراليون في الحرب الإنسانية حلفاء مضطربين لصقور الإدارة. تورط برنت سكوكروفت مع غور فيدال وبات بوكانان؛ وصحا مايكل إغناتيف ليجد نفسه قريباً من بول وولفوفيتز. تساءل بيرمان إن كان هو وأنصار الإدارة يريدون الشيء ذاته؟ فقد قال ذات ليلة في شقته: «لست متأكداً مما إذا كنا نتكلم اللغة نفسها؛ لأنني لا أعرف كيف أحكم على لغة المحافظين الجدد. إذا كانت اللغة صادقة، وإن كانت هناك مثالية في صفوف المحافظين الجدد تردد وتعكس على نحو ما لغة أنصار التدخل الليبراليين للتسعينيات، حسناً، سيكون هذا شيئاً جيداً. صحيح أن مذهب المحافظين الجدد هو يساري المنشأ، وإذا اتضح أن هذا هو الحال -وهو أمر يساورني شك بالغ بشأنه- أي أن بعض المحافظين الجدد سوف يعودون إلى جذورهم الفكرية السابقة، فإن ذلك سيكون رائعاً». ولكن في حال حدث أن انطلقت هذه الطائرة الحربية فإن «أنصار التدخل الليبراليين للتسعينيات» لن يكونوا من موجهي الدفة. لذلك فإن نوايا الإدارة بالغة الأهمية. قال بيرمان: «إن الحكم على ما يفكر فيه موظفو الإدارة أمر في غاية الصعوبة. لم يسمحوا لنا أن نعرف في أي النقاط هم صادقون وفي أيها هم منافقون».

غير أن صدق الإدارة لم يكن هو المسألة الأكثر أهمية. كانت هناك مسألة معرفتها وحكمها، فقد سبّب نفاد صبر اللوبي المؤيد للحرب مما كانت عليه الأمور الإزعاج حتى لبعض المؤيدين، فإذا كانت الحرب ضد الإسلامية الراديكالية يجب أن تكون في نهاية المطاف حرباً من أجل الليبرالية، عندئذ ينبغي عد تاريخ الغرب ذاته تحذيرياً. لقد أخبرني ليون فيسلتير

(Leon Wieseltier)، المحرر الأدبي لصحيفة (New Republic) (الجمهورية الجديدة) أن الليبرالية لم تظهر فجأة في يوم حارق من شهر يوليو/ تموز في فرنسة في عام 1789». وإنما كانت «انفجاراً عنيفاً» بعد قرون من النزاع داخل الدولة الخاضعة لحكم رجال الدين (البيوقراطية) والدولة الخاضعة لحكم فردي مطلق (الأوتوقراطية). فالليبرالية، بتعريفها، صعبة ومزعزعة للاستقرار. وينبغي عدم القيام بها بحماسة تبشيرية. وإن محاولة جلبها بقوة إلى الشرق الأوسط الثيوقراطي والأتوقراطي من الخارج، اعتماداً على الإيمان بأن الناس حيثما كانوا يتوقون إلى الحرية، نهايةُ القصة، فهذه فكرة غير ليبرالية جوهرياً. قال فيسلتير: «إذ كان ثمة شيء ليس في الليبرالية وقت له، فهو النظرة الخاصة بالأخرويات، فالليبرالية هي في جوهرها نظرة للعالم، مناوئة للأخرويات. والآن بعد أن صحا مختلف الناس على الحقائق السياسية والفلسفية القاسية لمعظم العالم، فإن الفكرة القائلة: إنه على الولايات المتحدة إرسال قواتها إلى مكان لإصلاح العالم مرة واحدة وإلى الأبد هي فكرة حمقاء. إنهم يريدون إجابة نهائية ويريدون الانتهاء من المسألة. وليس هناك إجابة نهائية. هناك تقدم بطيء ثابت وغير منتظم نحو عالم أكثر احتراماً وديمقراطية». وعلى الرغم من ذلك، أيد فيسلتير الحرب، ليس استناداً فقط إلى الأسس التي قدمتها الإدارة لشنها، وهي: التهديد الذي تشكله ترسانة صدّام من الأسلحة غير التقليدية وتاريخه في استخدامها.

طوال عام 2002، لم يكن المسؤولون الذين كانوا مكلفين بالفعل بوضع سياسات بشأن العراق يتحدثون عن الحضارة الليبرالية أو الثورة من الأعلى. فلم يكن من الواضح أبداً أن الدائرة المحيطة ببوش كانت تشارك المفكرين في الحرب من خارج الحكومة الأحلام والرؤى. لقد عرّفت إدارة بوش أساس الحرب بشكل واضح ومحدّد، بدءاً بالتحذير الذي وجهه الرئيس في خطابه عن حالة الاتحاد، حيث قال: «لن تسمح الولايات المتحدة لأنظمة الحكم الأشد خطراً في العالم بأن تهددنا بأشد أسلحة العالم فتكاً». إذا كانت الحرب ستقوم، فستكون الأسباب قياسية وليست أخروية: لقد حصل صدّام على أسلحة دمار شامل، وما زال يسعى للحصول عليها؛ وقد استخدمها ضد مواطنيه في الماضي؛ وقد يعطيها الآن إلى القاعدة أو إلى جماعة إرهابية أخرى؛ والإرهابيون يريدون تدمير الولايات المتحدة. لذلك على الولايات المتحدة نزع أسلحة صدام أو الإطاحة به.

لقد أشار خطاب الرئيس الذي ألقاه بخصوص «محور الشر»، بعد أسابيع فقط من سقوط حكم طالبان في أفغانستان، إلى المرحلة الآتية في الحرب على الإرهاب، والأساس لاتخاذ إجراء آخر، حيث وسع الخطاب مسرح الحرب بشكل مثير، ولكنه فعل ذلك على أسس ضيقة نسبياً. لقد أخبر وولفوفيتز صحافياً أجرى معه مقابلة، بعد سقوط بغداد بأن أسلحة الدمار الشامل كانت أقل قاسم مشترك: «الحقيقة هي أنه لأسباب لها علاقة كبيرة ببيروقراطية حكومة الولايات المتحدة، فقد وقع اختيارنا على القضية الوحيدة التي يمكن أن يتفق عليها الجميع، ألا وهي أسلحة الدمار الشامل». لمّح وولفوفيتز بأنه كانت لديه أفكار أكبر، وهي إعادة ترتيب القوة والنفوذ الأمريكيين في الشرق الأوسط، بعيداً عن المملكة العربية السعودية، وباتجاه عراق ديمقراطي، وذلك في مستهل جهد لتطهير المنطقة برمتها من أنظمة حكم وإيديولوجيات قاتلة، وهو أمر كان سيعدّ قضية أوسع كثيراً من أسلحة الدمار الشامل وأقرب إلى حجج الأشخاص ذوي النفوذ خارج الإدارة، مثل برنارد لويس وفؤاد عجمي وروبرت كاغان، ولما كان هذا يرتكز على نظرية معقدة ومجردة، فإن إقناع عامة الناس به أمر أصعب.

في أثناء تلك السنة، ظلت أسلحة الدمار الشامل السبب الجوهري الذي لجأت إليه الإدارة لشن حرب كانت على الأرجح قد قررت القيام بها منذ نوفمبر/تشرين الثاني 2001. (كانت هناك عبارة متكررة عبرت عن الكلام الدبلوماسي الخادع مدة ما قبل الحرب التي دأب المسؤولون على استخدامها حتى وصلوا إلى شفير الغزو، وكأن الإدارة كانت تُجرّ بالرغم منها إلى عداوات مع العراق، وكانت تبذل كل ما بوسعها لتفاديها، «هل أصبحت الحرب ضرورية ومتى.....») .. وبعد أن استقر الرأي على أن تكون أسلحة الدمار الشامل سبباً للحرب وهل ستكون هناك حرب، ومتى التزمت الإدارة بحدود حجّتها. في يوليو/ تموز 2002، قدّم سير ريتشارد ديرلاف (Richard Dearlove)، رئيس الاستخبارات الخارجية في بريطانية، تقريراً إلى طوني بلير وكبار مسؤوليه عن اجتماعاته في واشنطن، واستناداً إلى مذكرة سرية أعلن عنها في عام 2005، أخبر سير ريتشارد زملاءه قائلاً: «لقد أصبح الإجراء العسكري الآن حتمياً. يريد بوش إزالة صدام، بإجراء عسكري، والمسوغ لذلك الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل معاً. ولكن الاستخبارات والحقائق كانت تركز حول

السياسة: إذ إن مجلس الأمن القومي ضاق ذرعاً بالمسار الذي تسلكه الأمم المتحدة، ولم يكن متحمساً لنشر مواد عن سجل نظام الحكم العراقي. لم تجرِ سوى مناقشة قليلة في واشنطن عن عواقب وتبعات إجراء عسكري».

لذلك، حين بدأت في أواخر صيف وخريف عام 2002 حملة قوية لإقناع الشعب الأمريكي بالحاجة إلى شن حرب استباقية ضد العراق، كان الخطاب يتسم بكثير من الاحتجاج، فقبل سنة تماماً، كان ينظر إلى العراق على أنه دولة خارجة على القانون بدأت تتهرب من القيود الدولية، ويحتمل أن تشكل تهديداً للمنطقة، أو على نحو أبعد، للولايات المتحدة في غضون خمس سنوات أو نحو ذلك. الآن وفجأة يجب عدم إضاعة أي يوم. في أواخر أغسطس/ آب، فاجأ ديك تشيني كولن باول وغيره من المتشككين بخصوص العراق، حين صرّح أمام المحاربين القدماء في الحروب الأجنبية، بأن نظام صدام حسين يمتلك -بلا شك- مخزوناً احتياطياً من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وأنه «أعاد بناء» برنامجه في مجال الأسلحة النووية. وفي غضون سنة، يمكن لصدام أن يمتلك سلاحاً نووياً، ولم يخجل تشيني من أن يلمّح بأن الدكتاتور العراقي قد يسلّم سلاحاً نووياً إلى القاعدة.

لم يكن من المهم عدم وجود دليل قوي لدعم التكهن بيوم القيامة، لقد أصبح التهديد المحتمل المتوسط إلى الطويل المدى «خطراً جسيماً ومتزايداً». وقد ابتكرت كوندوليزا رايس تعبيراً مجازياً منذراً بالشر، واستخدمه في خطاب أشبه بإعلان حرب في سنسناتي في شهر أكتوبر/ تشرين الأول: الدليل القاطع في شكل سحابة فطر. استمرت حملة الإقناع في مغالاة بلاغية، وذلك بإمالة متعمدة للحقائق الملتبسة باتجاه واحد، وبالغمز واللمز بأن ما تعرفه الإدارة يفوق ما يمكنها الكشف عنه. تم انتقاء وإبراز معلومات استخبارية متضاربة، وغير دامغة لتحليل أسوأ حالة محبذة لدى البيت الأبيض. أكدت كوندوليزا رايس في مقابلة تلفازية أن شحنة من أنابيب الألومنيوم التي شك الخبراء في وزارة البيئة بإمكانية استخدامها في أجهزة الطرد المركزي لتخصيب اليورانيوم، لا تصلح إلا لهذا الغرض. واستمر مسؤولون كبار، بمن فيهم الرئيس في الاستشهاد بوثائق تسجل بيع يورانيوم الكعكة الصفراء من النيجر إلى العراق، مدة طويلة بعد أن ثبت أنها وثائق احتيالية. وكانت مجموعة من المدنيين في البنتاغون، بتوجيه من دوغلاس فيث ووليام لوتي، تغربل معلومات بدائية حول احتمال

وجود روابط بين صدّام والقاعدة، وذلك بهدف الوصول إلى النتيجة المرغوب فيها، التي لم تقدمها مجموعة الاستخبارات الرسمية، بما فيها وكالة استخبارات الدفاع التابعة للبنتاغون. أما خارج الحكومة، فقد حذر دعاة الحرب مثل بيرل وكريستول وكاغان بأن الوقت آخذ في النفاد. بدا الأمر، وكأن الإدارة كانت تعمل على مدار الساعة للحيلولة دون وقوع هجوم نووي على بيرل هاربر، ولتثبت في الوقت ذاته أن الهجوم يوشك أن يحدث. لم يكن المرء بحاجة إلى خبرة خاصة في مجالي الاستخبارات أو الانتشار ليخامره الشك فيما يجري. لقد حصرت الإدارة نفسها في اتخاذ قرار بالتوجه إلى الحرب قبل أن تعرف بالضبط سبب ذلك.

حتى عندما كان بوش ومجلس وزراء حربه يعرضون قضيتهم المحددة بخصوص العراق، وضعوا إستراتيجية كبرى بعيدة المدى لاستخدام القوة الأمريكية في العالم. وبدأ الرئيس توضيح هذا في سلسلة خطابات ألقاها أمام الأكاديميات العسكرية. وقد صنفتها رايس في وثيقة أعدت تحت إشرافها بعنوان: «إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية». كانت المسودة الأولى التي خطها ريتشارد هاس في غاية الطول والاعتدال، بحيث لم تناسب ذوق رايس التي أوكلت تنقيحها إلى فيليب زيليكو (Philip Zelikow)، الأستاذ في جامعة فيرجينيا، الذي كان زميلها في مجلس الأمن القومي في عهد الرئيس بوش الأب. أنتج زيليكو بياناً قصيراً وبليغاً بالمبادئ مع نص جديد حول الحرب الاستباقية، وعندما نشرت الوثيقة في سبتمبر/ أيلول، اتخذت بمنزلة مسوغ للحرب ضد العراق، وكأن تلك الوثيقة البيروقراطية السابقة شبه المنسية، وهي توجيه التخطيط الدفاعي عام 1992، التي تم إعدادها قرب نهاية إدارة الرئيس بوش الأول، كانت قد وضعت في ثلاجة لحفظها في أثناء المنفى الطويل لسنوات كلينتون، ليعيد إحياءها بعد عقد من الزمن إثر أحداث 11 سبتمبر/ أيلول في عهد رئاسة بوش الابن اللاعبون ذاتهم الذين سبق أن كتبوا النص الأصلي، ووجهوه ووافقوا عليه. لقد أعلنت الوثيقة الجديدة مبدأ بوش الجديد، يعد «بروح دولية أمريكية مميزة تعكس وحدة قيمنا ومصالحنا القومية». وسوف تسعى إلى تعزيز «ميزان قوى يحبذ حرية الإنسان». وبدا أن بوش ومستشارته للأمن القومي رايس كانا يتقاسمان الفرق بين واقعية والد بوش ومستشاره للأمن القومي برنت سكوكروفت، موجه رايس، ومثالية المحافظين

الجدد الصاعد نجمهم حالياً. ولكن في واقع الأمر، فإن اللغة الطنانة للوثائق الجديدة، بل أكثر من ذلك، جوهرها، أوضحت قطيعة حاسمة مع مؤسسة السياسة الخارجية، فقد تم التخلي عن «ميزان القوى»؛ في الحقبة الجديدة، لم تعد سياسات الحرب الباردة القديمة بخصوص الاحتواء والردع مطبقة. ولم يكن ممكناً ردع الدول المارقة والإرهابيين العالميين. وسوف تضمن أمريكة، المتفوقة بلا منازع، السلام جزئياً عبر استباق تهديدات للسلام، وسوف تفعل ذلك ضمن الإطار الدولي القائم، إن أمكن، ولكن مع «تحالفات لغرض معين مع المستعدين لذلك» إن لزم الأمر، أو حتى بمفردها. القوة الأمريكية لم تجعل أمريكة فوق الحق، إن أمريكة على حق بحكم كونها أمريكة. غير أن القوة الأمريكية تؤازر الحق عبر الكرة الأرضية: ومن هنا جاء اختلاف الإستراتيجية الجديدة لما بعد 11 سبتمبر/ أيلول عن الإستراتيجية القديمة السابقة للحرب الباردة، الخاصة بتوجيه التخطيط الدفاعي: فبعد الهجمات الإرهابية، لم يعد بوسع القوة الأعظم في العالم أن تظل محايدة إزاء السياسات المتبعة داخل بلدان أخرى، حيث قد يعاني «الاستقرار» انحلالاً خطيراً. سوف تعزز أمريكة الآن بشكل فاعل الحرية حول العالم. «الحرية» هي الكلمة الرئيسة لوثيقة 2002، التي تنص خطوطها الافتتاحية على ما يأتي: «لقد انتهت الصراعات الكبرى للقرن العشرين بين الحرية والاستبدادية بانتصار حاسم لقوى الحرية، ونمط واحد مستدام للنجاح الوطني: الحرية والديمقراطية وروح المبادرة الحرة».

لقد انتصر نهائياً المذهب المحافظ الجديد، في صراعه الطويل من أجل روح الحزب الجمهوري والسياسة الخارجية الأمريكية. والفرصة الأولى لاختبار المذهب كانت آتية سريعاً، في العراق.

باستعادة أحداث الماضي، من الأسهل رؤية الدودة في التفاحة، وبذرة المتاعب المستقبلية. لقد سبق أن عملت جميع الشخصيات البارزة في وزارة حرب بوش في مستويات رفيعة في إدارة سابقة واحدة على الأقل؛ وقد خدم بعضها في ثلاث أو أربع إدارات. ما من معاصر ديمقراطي يمكنه الادعاء بأي شيء أشبه بخبرة تلك الشخصيات. مع حساب سنواته في الكونغرس، فقد كان ديك تشيني من المتنفذين المطلعين على بواطن الأمور تحت كل رئيس جمهوري منذ عهد نيكسون. امتدت حياة بول وولفوفيتز العملية في الحكومة عبر كل إدارة،

من نكسون إلى بوش الابن، باستثناء سنوات كلينتون. كان مستشارو بوش الابن في مجال السياسة الخارجية ذوي خبرة واسعة جدًّا، وكانوا يثقون بأنفسهم بشكل عدائي، وكانوا بشكل خاص لا يصلحون للتعامل مع عواقب مبدأ بوش ونتائجه.

لقد التحقوا بالحكومة في أعقاب تبعات الصدمة النفسية في فييتنام، وقد انصهروا كما انصهر صقور الحرب الباردة، وكرسوا حياتهم المهنية لاستعادة القوة العسكرية الأمريكية، وإبرازها حول العالم. كان الشيء الوحيد الذي يتعين على أمريكة أن تخشاه، في العقود الثلاثة من حياتهم العامة، هو عودتها إلى حالة الضعف. ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة، لم يشتركوا في مناظرات التسعينيات حول الحرب الإنسانية، والمعايير الدولية، وبناء الأمة، والترويج للديمقراطية. لم يكن لديهم الكثير ليقولوه حول التهديدات الأمنية الجديدة التي لا حدود لها. كالدول المخفقة، والنزاع الإثني، والفقر، و«الأسلحة النووية السائبة» في روسية ما بعد الشيوعية، والإرهاب العالمي. كانت سياسة كلينتون الخارجية عديمة الفاعلية؛ وقد قالوا لأنفسهم فور عودتهم إلى السلطة: إنهم سوف يفعلون كل شيء على نحو مختلف. وأعرب تشيني، أشد المتشددين، عن رفض مُزْدَرٍ لكل تدخل جرى في ذلك العقد. لم يشكل رامسفيلد فكرة جديدة منذ معارضته الحد من الأسلحة، حين كان وزير الدفاع في أثناء رئاسة جيرالد فورد. وكان يساور باول ورايس تشكك عميق في التزامات عسكرية بلا نهاية نيابة عن المثل «الرقيقة». تولى بوش الرئاسة دون أي فضول بشأن العالم، وإنما كان لديه فقط شك في أن سلفه قد ورط أمريكة في العديد من الأماكن شديدة الغموض التي لا تشكل أهمية للمصالح القومية.

أما وولفوفيتز فقد كان الوحيد من بينهم الذي أيد التدخلات في البوسنة وكوسوفو، ولكن نظرته العالمية تركته غير مستعد للتعامل مع تنظيم بلا دولة، يعتنق أيديولوجية الجهاد العالمي، أو حتى الاعتراف به. وعندما أرغم 11 سبتمبر/أيلول الخيال على التصارع مع شيء جديد راديكالياً، وصل مستشارو الرئيس في مجال السياسة الخارجية إلى ما كانوا يعرفونه دائماً. فالتهديد، كما رأوه، كان يكمن في دول عدوة جيدة التسليح. وكانت الإجابة كالمعتاد هي القوة العسكرية والإرادة لاستخدامها.